المناظرة في التراث العربي الإسلامي
"مناظرة الجاحظ في الردّ على ادعـاءات النصارى أنموذجا"

د.سليمة محفوظي
جامعة محمد الشريف مساعدية/سوق أهراس
Salima.mahfoudi66@gmail.com

الملخص

يزخر التراث العربي الإسلامي بالحوارات الفكرية الثرية التي كان منبعها ترشيد الصراع الفكري والمذهبي والحيلولة دون تحوله إلى صراع عنيف، كان المسلمون يهدفون من حواراتهم إلى الانتصار للحق، وهو هدف يختلف تماماً عن الجدل اليوناني الذي يقوم على الانتصار للرأي صائباً أم خطأ، هكذا اختلفت الرؤيتان وانطلاقتهما الفلسفية، وانعكس هذا في احترام المذاهب الإسلامية على اختلافاتها للآراء المتضاربة أحياناً، ومن هنا برزت آداب المناظرة والحوار.

إن المناظرة في التراث الإسلامي جسدت الدّليل الحيّ على اقتناع الثّقافة العربية الإسّلامية بالحوار، واحتضانها الواسع للتعدد والاختلاف في المواقف والآراء والتّصورات، ليس داخل بنيتها فقط، بل وكذلك في علاقة مع بنيات حضارية خارجية. إن المناظرة في التّراث العربي الإسّلامي جسدت المسار الخصب للتفاعل والانفتاح الذي سلكته هذه الثقافة، إذ لم تكن منغلقة على نفسها أو محترزة إزاء الآخر وتياراته، لقد حاورت هذه الثقافة من خالفها، وقبست مما أقنعها في سياق حجاجي منتج فأثرت وتأثرت بغيرها من الثقافات .

ومن هنا كانت فكرة البحث في الكشف عن البنية العامة للمناظرة وكيفية توظيف المتكلّم للحجج المناسبة التي تخدم غرض المناظرة ، وكيف ارتقى الجدل والمناظرة آنذاك إلى حد بعيد وانتشر هذا اللّون في المجالس المختلفة حتى بهر الناس وهذا ما تسعى هذه الورقة البحثية إلى إثباته من خلال رسالة الرد على النصارى.

الكلمات المفتاحية: المناظرة؛التراث؛المتلقي؛البراهين؛الإقناع

Abstract :

The Arab Islamic heritage is rich in intellectual dialogues, which stemmed from rationalizing the intellectual and sectarian conflict and preventing it from turning into violent conflict. The Muslims aimed from their dialogues to the victory of the right, a goal that is completely different from the Greek debate based on victory for right or wrong opinion,Thus, the two visions diverged and their philosophical departure,This was reflected in the respect of Islamic doctrines and their differences of views sometimes conflicting, here highlights the ethics of debate and dialogue

The debate in the Islamic heritage embodied the living evidence of the conviction of the Arab-Islamic culture in dialogue and its broad embrace of diversity and differences in attitudes, views and perceptions, not only within its structure but also in relation to external cultural structures. The debate in the Arab-Islamic heritage embodied the fertile path of the interaction and openness of this culture, as it was not closed to itself. This culture was contrasted with what was convinced and during an important historical period and in the context of a productive pilgrimage that affected this culture and was influenced by other cultures.

keywords : The debate ;the heritage ; the receiver ; the proofs ; the persuasion

1–مقدمة

تُعدُّ المناظرات من أهم الفنون النّثرية في العصر العباسي، كما تعدُّ من الفنون الجديدة في النّثر العربي، وقد نمت وازدهرت في القرن الثّاني الهجري وكان لمجالس العلم والمناظرة مكانة سامية في العصر العباسي، لأنَّ خلفاء هذا العصر بحكم دعوتهم السّياسيّة، واستفحال أمر المدنيّة، وعِظَم الحضارة في أيامهم، جعلوا من مراسيم بلاطهم، وتقاليد ملكهم عقد تلك المجالس إيناساً بالعلم وأهله وتنشيطاً للحركة العلميّة، وتشجيع أربابها، وتقويّة للدّولة، لأنّ الدّول إنما تقوى في ظلال العلم، وعلى أيدي ذويه...في بادئ الأمر كانت مجالس العلم مجالس للمناظرة والمذاكرة، تنعقد في المساجد وما يلحق بها من مدارس، ثم حُبِب إلى نفوس الخلفاء العباسيين استقدام العلماء إلى مجالسهم، وانعقاد حلقاتهم العلميّة في قصورهم، واتبعهم في ذلك القوم وسائر الأمراء. ولقد اتخذ المهدي بن أبي جعفر المنصور مما كان يعقده للعلماء من مجالس وسيلة لتحقيق مسائل الدّين التي كان يتجادل فيها المتجادلون، وللردِّ على الزنادقة والملحدين، وطلب إلى العلماء أن يناقشوهم في حوارهم بمثل كلامهم من غير الاحتكام إلى القرآن والسن[1]، فإنَّ الجاحد لا ينبغي أن يُحتج عليه بما لا يؤمن به. فنشأ من ذلك علم الجدل والمناظرة وعلم الكلام، وانبنى على هذا أيضاً ترجمة علم المنطق ونقله إلى اللغة العربية، إذ هو أداة البراهين، وآلة الفكر والبحث، ويعود الفضل في شيوع المناظرات وازدهارها إلى المتكلمين وخاصة المعتزلة، حيث اتخذوا الجدل والمناظرة وسيلة اعتمدوا عليها في مباحثهم ونشر مبادئهم، وفي أداء مهمتهم بصفة عامة.

2– المناظـرة لغـة واصطـلاحا:

عرّف ابن منظور المناظرة بقوله: "والتناظر: التّراوض في الأمر، ونظيرك: الذي يراوضك وتنظره وناظره من المناظرة. والنظير:المثل، وقيل المثل في كل شيء وفلا ننظير كأيمثلك لأنه إذا نظر إليهما الناظر رآهما سواء﴿...﴾والنظير بمعنى الند﴿...﴾ويقال ناظرت فلانا أي صرت نظيرا له في المخاطبة وناظرت فلانا بفلان أي جعلته نظيرا له"[2] وقد ذهب الدكتور محمد حسن عبدالله إلى أن تعريف ابن منظور يحدّد المناظرة بوصفها حوارا دون سطوة أو استكراه ولذلك فسّر هذا الباحث الترويض على أنه "إعادة التكوين"[3].

وعرّفهـا طاش كبرى زاده الذي كان علما في هذا الباب "هي النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهارا للحق"[4]، و رسم ابن خلدون في المقدمة معالم هذا العلم، ومسوغاته وغاياته حيث اعتبر الجدل هو المناظرة "وأما الجدل وهو معرفة آداب المناظرة﴿...﴾ فإنه لما كان باب المناظرة في الردّ والقبول متّسعا، وكل واحدمن المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج،ومنه ما يكون صوابا ومنه ما يكون خطئا ،فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آدابا وأحكاما يقف المتناظران عند حدودها في الردّ والقبول ،وكيف يكون الحال المستدل والمجيب وحيث يسوغ له أن يكون مستدلا ويكون مخصوما منقطعا ومحل اعتراضه أو معارضته، وأين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال"[5]وعليه فالمناظرة "هي النظر من جانبين في مسألة من المسائل قصد إظهار الصواب فيها"[6] وعليه فالمناظر يحتاج إلى إعمال نظره بدقة فيما يعرض له أو يتناوله فالكل يسعى إلى على مناظره لما في النفوس من حُبّ الغلبة.

يزخر التّراث العربي الإسّلامي بالدّراسات التي انشغلت بمسألة التّناظر والجدال مما يجعلنا نقف على مسميات كثيرة تصل أحيانا إلى حد التّباين والتّمايز كعلم المناظرة، وعلم آداب البحث، علم الجدل، الحجاج... ولعل إهمال المناظرة كقطاع غني في ثقافتنا راجع إلى الفصل التعسفي بين الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام، تتوسل الأولى بالمنطق حيث يتوسل الثاني بالجدل، فتقع المفاضلة على أساس ادعاء برهانية الفلسفة وجدلية الكلام وسمو البرهان عن الجدل[7].

لم يفصل أبو المعالي الجويني بين المناظرة والجدل ،وإن فرّق بينهما من حيث الاشتقاق اللغوي[8]، فبعد أن بيّن فشل التّعريفات في اقتناص دلالة الجدل (المناظرة) يقــول: "والصّحيح أن يقال: إظهار المتنازعين مقتضى نظرهما على التّدافع والتنافي بالعبارة ،أو ما يقوم مقامها من الإشارة والدلالة"[9].

وفي ذات السّياق يرى أبو الوليد الباجي أن "الجدل تردد الكلام بين اثنين قصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول صاحبه"[10]، ويضيف "وهذا العلم من أرفع العلوم قدرا وأعظمها شأنا، لأنّه السّبيل إلى معرفة الاستدلال وتمييز الحق من المحال، ولولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجة ولا اتضحت محجة، ولا علم الصّحيح من السّقيم ولا المعوج من المستقيم[11]"إن الجدل كعلم "قانون صناعي يعرف أحوال المباحث من الخطأ والصواب على وجه يدفع عن نفس النّاظر والمناظر (المعلل والسائل) الشك والارتياب"[12]

وبناء على هذه التّحديدات الاصطلاحية تكون المناظرة هي النّظر بالبصيرة من الجانبيّن في النّسبة بين الشّيئين إظهارا للصواب، إذ من المتعذر أن يحيط المرء بكل المعارف وأن يصل إلى منتهاها بجهده وحده، مما يتطلب إسهام العقلاء في بنائها، وهذا ما أشار إليه طه عبد الرحمان بمصطلح المعاقلة التي كانت تسد في الفكر الإسلامي القديم مسد العقل في التراث اليوناني[13]

الاختلاف تتطور المعارف الفلسفية والعلمية (تناسب طردي)، ذلك أن الوجود الإنساني يغتني بالاختلاف لا بالتنميط وفرض الرأي الواحد"[14].

وتظهـر" شرعية الاحتجاج والمناظرة بشواهد من القرآن الذي يعج بنماذج راقية في التّدليل على التوحيد والمعاد وخلق العالم... وفيه مناظرات وجدالات بين جهات عدة مجادلات الكفار مع رسلهم، حوار الله مع الملائكة[15]كقوله تعالى:﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾* و قوله عزّ وجلّ ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾**

3-الأفعـال التّكلميّـة للمناظـرة:

ولما كانت الغاية من المناظرة تقويم المعوج من التّصورات وتصحيح الأفكار الخاطئة، لزم أن تستند إلى مجموعة من الشروط والأخلاقيات التي يتوجب توفّرهافي المتناظرين، ولهذا جعلت لها شروط وآداب نلخصها في النّقاط الآتيــة[16]:

فأمــا الّشــروط العامــة:

- لا بد لها من جانبين.
- لا بد لها من دعوى.
- لا بد لها من مآل يكون عجز أحد الجانبين.

- لكل من الجانبين آداب ووظائف.

ومـن الشّروط العامة للمناظرة استنبط المفكر طه عبد الرحمن أفعالا تكلميّة ثلاثة هـي:

أ-الادعـاء: من شروط هذا الفعل التكلمي باعتباره فعلا عرضيـا:

- أن المدّعي يعتقد صدق ما يدعي.
- أن المدّعي يطالب المخاطب بأن يصدق بدوره الدعوى.
- أن للمدّعي بيّنة(حجة) أو بيّنات على ما يدّعي.
- أن للمخاطب حق المطالبة بهذه البيّنات وتقويمها.
- أن يكون منطوق الادّعاء أنه صادق ومفهومه أنه قابل للتكذيب.

ب-المنـع: وهو الاعتراض على الدعوى.

ج-التّدليـل: وشروط هذا الفعل هـي:

- شرط المضمون القضوي: أن يكون مبنى التّدليل على مجموعة الادعاءات في صورة مجموعة من القضايا.
- شرط الصدق: يعتقد المدعي صدق قضايا دليله وصحة هذا التدليل.
- شروط تمهيدية: يعتبر المدّعي المعترض صادقا في اعتراضه ومصدقا بقضايا دليل الاعتراض وبوظيفتها التّداولية.
- والشرط الجوهري: يقصد المدّعي بتدليله إقناع المعترض بالعدول عن منعه[17].
- يتبيّن من هذا الكلام أن المناظرة تقوم بين طرفين, وكل طرف يسعى لإقناع الطّرف الآخر بصدق دعواه وبطلان ما لخصمه, ويتأسّس المنهج الاستدلالي في المناظرة على الحجاج وفق آليات خطابية محددّة.

4- أخلاقيـات المناظـرة:

تؤسّـس المناظرة أخلاقيات التواصل على مبادئ عقلية، قابلة للنقد والمناقشة وهو ما سمي بالعقل التّواصلي الذي "يعبر عن تلك الطّاقة العقليّة المبنية في أساس صلاحية الخطاب"[18].

- ❖ أن يكون المتناظران متقاربين مكانة ومعرفة.
- ❖ أن يمهل المناظر خصمه حتى يستوفي مسألته، كيلا يفسد عليه توارد أفكاره، وحتى يفهم مراده من الكلام كي لا يقوّله ما لم يقل.
- ❖ أن يتجنب المناظر الإساءة إلى خصمه بالقول بغية إضعافه عن القيام بحجته.
- ❖ أن يقصد المناظر الاشتراك مع خصمه في إظهار الحق والاعتراف به، حتى لا يتباهى به إذا ظهر على يده ولا يعاند فيه إذا ظهر على يد خصمه.
- ❖ أن يتجنب المناظر المحاورة مع من ليس مذهبه إلا المضادة، لأنه من كان هذا مسلكه لا ينفع معه الإقناع بالحجة"[19].

5-دور المتكلمون في المناظرة

أدى المتكلمون دوراً كبيراً وبارزاً في الدّفاع عن العقيدة الإسلامية إزاء المعتقدات والديانات الأخرى السماوية المحرّفة منها كالمسيحية واليهودية، والمشركة والإلحادية كالمجوسية، والثنوية، والمانويّة، وقد تمثّل هذا الدّور إما في مناقشة وإبطال حجج أصحاب تلك المعتقدات والدّيانات أو في دعوة غير المسلمين الطالبين للحقيقة إلى الإيمان بالعقيدة الإسّلامية، ومن بين أهم المناظرات التي تضمنتها الرسائل مناظرة الجاحظ في الردّ على اليهود والنصارى.

يرى الجاحظ أن المناظرة هي النقاش الذي يدور بين شخصين يمثلان أفكارا متناقضة، ولهذا بنى مناظراته أو جدله على مبدأ التناقض، واستخدمه كما استخدمه أفلاطون وسقراط وسيلة للكشف عن الحقيقة عن طريق احتكاك الآراء التي ينتج عنها العلم والمعرفة "لكنه جدل يختلف عن الجدل الأرسطي من جهة، وعن جدل ماركس وهيجل من جهة أخرى"[20]، فالجدل الأرسطي موضوعه هو الظن و ما يكون في غالب الأحيان، فهو لا يؤدي إلى العلم بل إلى الرأي "على النقيض من المنطق الذي موضوعه الصّدق، و هو علم القياس ذي المقدمتين الضروريتين و النتيجة الضرورية" [22]أما الجدل عند هيجل وماركس فيختص بالعلوم الاجتماعية، فالجدل عند هما "أن أفراد المجتمع يمكنهم، لمجرد أنهم يسعون وراء هدف معين أن يساهموا في خلق حالة معينة متميزة – وربما متناقضة مع- عن الغرض المقصود"[23].

واعتبر الجاحظ الجدل أنجع الأساليب لتوليد المعارف، لما يوفره من آليات تكشف عن الحقيقة، وتسمح بدحض الخصم، كما يُفعّل الحوار ويدفعه إلى الأمام ،هذا إذا ابتعد الخصمان عن المراء، " لا تكاد تظهر قوتها ولا يبلغ أقصاها إلا مع حضور الخصم، ولا يكاد الخصم يبلغ محبته منها إلا برفع الصّوت وحركة اليد، ولا يكاد اجتماعهما يكون إلا في المحفل العظيم... ولا تجود القوة بمكنونها وتعطي أقصى ذخيرتها، التي استخزنت ليوم فقرها وحاجتها، إلا يوم جمع وساعة حفل"[24].

اعتدّ الجاحظ بالجدل وفعاليته، فهو ليس مجرد ترف فكري يلجأ إليه المتكلمون المناصرون لمذهبهم، إنما هو الإيمان بقدرات العقل التي تلزم المتكلم إجلاء الحقيقة وخدمة العلم وقد قال في ذلك: "فما ينتظر العالم بإظهار ما عنده، والناشر للحق من القيام بما يلزمه. فقد أمكن القول و صلح الدهر، وخوى نجم التقية، وهبت ريح العلماء، وكسد الجهل والعي وقامت سوق العلم والبيان"[25].

6-منهجية الجاحظ في المناظرة

نعثر علىمنهجية الجاحظ في المناظرة في عدة رسائل ،من ذلك ما أفصح عنه في رسالة العثمانية: "واعلم أن واضع الكتاب لا يكون بين الخصوم عدلا، ولأهل النظر مألفا حتى يبلغ من شدة الاستقصاء لخصمه مثل الذي يبلغ لنفسه، حتى لو لم يقرأ القارئ من كتابه إلا مقالة خصمه لخيل له أنه الذي اجتباه لنفسه، واختاره لدينه. ولولا اتكالي على انقطاع الباطل عن مدى الحق وإن استقصيته وبلغت غايته، ما استجزت حكايته، وقمت مقام صاحبه"[26].

وقد حافظ الجاحظ على منهجه في كل الرسائل لأنّه ينطلق من مبادئ لا تتغير ولا تتبدل ونستقي من رسالة "استحقاق الإمامة" هذا المقطع لندلل به على ذلك، حيث قال :"قد حكينا قول من خالفنا في وجوب الإمامة و

تعظيم الخلافة، وفسرنا وجوه اختلافهم واستقصينا جميع حججهم إذ كان على عذر لمن غاب عنه خصمه وقد تكفل بالإخبار عنه في ترك الحيطة له والقيام بحجته، كما أنه لا عذر له في التقصير عن إفساد ما يخالفه و كشف خطأ من يضاده عند من قرأ كتابه وتفهم حجته"[27].فبعد أن يستعرض حجج الخصم يأتي إلى هدمها الواحدة تلو الأخرى بالأدلة والبراهين الصحيحة ،حتى لا يترك حجة لمعترض أو منكر ،ودائما سبيله في ذلك القياس بمختلف أنواعه والشواهد الصحيحة المثبتة .

7-إبطـال دعـاوي النصـارى:

عكست رسالة الردّ على النصارى القدرة الجدليّة التي امتلكها هذا المتكلّم في الرّد على خصوم الإسلام والمسلمين، وكشفت جانبا من جوانب اطلاعه على علم الأديان ومعرفته بأدق تفاصيل عقائدها كما أنها بيّنت الجهود التي بذلها المتكلمون في الدفاع عن عقيدة التوحيد أمام خطر اليهود والنصارى والمذاهب الوضعية كالمجوسية والزرادشية وغيرها.

تناول المرسل بعض القضايا التي أطلقها اليهود والنّصارى وفنّدها المتكلّم مستعينا بآليات الاستدلال المختلفة ومن أبرز النقاط التي أتى عليها الجاحظ نذكر مـا يلـي:

1- غموض قولهم(النّصارى) في المسيح عليه السلام.

2- إنكار النصارى لكلام عيسى عليه السّلام في المهد.

ج-انقطاع سند النصرانية.

د-بنوة عيسى لله.

1.7-عـرض دليـل الدعـوى وحجـج الاعتـراض عليهـا:

بيّن طه عبد الرحمن أن "حدّ العرض أن ينفرد العرض ببناء معرفة نظرية سالكا في هذا البناء طرقا مخصوصة، يعتقد أنها ملزمة للمعروض عليه ،والعرض الاعتبار هو ادعاء من حيث إن: يعتقد صدق ما يعرض، يلزم المعوض عليه بتصديق عرضه صدق، يقيم الأدلة على مضامين عرضه، يوقن بصدق قضايا دليله وبصحة تدليله"[28] وأما الدليل" بوصفه متعلق لفعل الإقامة* يتميّز بخصائص منطقية تجعل منه قولا نظرية وحجّيا وقيميا"[29].

ونحـاول عرض أدلة دعاوي النصارى والتي أوردها الجاحظ في رسالته، ثم نسجل في عنصر الاعتراض ما ردّ به الجاحظ على هذه الدعاوي.

1.7التدليـل علـى القضيـة الأولـى:

عـرض الجاحظ دليله على غموض قول النصارى في كلام المسيح في المهد نحو قوله: "أما مسألتهم في كلام المسيح في المهد فهي أن النصارى مع حبهم لتقوية أمره لا يثبتونه وقولهم :إنا تقولناه وروويناه من غير الثقات وان الدليل على أن عيسى لم يتكلم في المهد: أن اليهود لا يعرفونه، وكذلك المجوس وكذلك الهند والديلم"[30].

2.7-الاعتـراض علـى القضيـة الأولـى أو منعهـا:

والاعتـراض أو المنع "فعل تكميليّ استجابي إدباري استشاري تقويمي تشكيكي سجالي، وهذه الصفات تجعل موضوعه مرتبطا بموضوع الادعاء ومنطوقه متصلا بمنطوقه، ومقصوده، مفاعلا لمقصوده، وتجعل حجّيته معاكسة في

قوتها لحجّية الادعاء والتدليل عليه مقيّدا بالتدليل على الادعاء"[31]، وقد اتبع الجاحظ منهجًا استقرائيًا نقديًا مقارنًا، فهو منهج يستند إلى التّحليل باستقراء الجزيئات وتصنيفها وترتيبها، مع التّوثق والتّأكد من صحة نسبة الأقوال ومناقشتها، وما يكتنفها من شروح وتفسيرات ثم إنه انطلق من الجزئيات الصغيرة ليصل إلى الحقائق الكبرى العامة.

ردّ المرسل على إنكار النّصارى كلام عيسى عليه السّلام في المهد فيقول: "في جواب مسألتهم عند إنكارهم كلام المسيح في المهد مولودا-يقال لهم: أنكم حين سويتم المسألة، ومَوَهتموها، ونظمتم ألفاظها، ظننتم أنكم قد نجحتم، وبلغتم غايتكم [...]ولعمري لو كانت اليهود تقرّ لكم بإحياء الأربعة الذين تزعمون، وإقامة المقعد الذين تدعون، وإطعام الجمع الكثير من الأرغفة اليسيرة، وتصيّر الماء جمدا، والمشي على الماء ثم أنكرت الكلام في المهد من بين جميع آياته وبراهينه لكان لكم ذلك في مقال، والى الطّعن سبيل ،فأما وهم يجحدون ذلك أجمع، فمرة يضحكون ومرة يغتاضون ويقولون: أنه صاحب رقى ونيرنجات*ومداوي مجانين ومتطبب وصاحب حيل وكان لسنا سكينا**ومقتولا مرجوما...فكيف تشهدون قوما هذا قولهم في صاحبكم حين قالوا: كيف يجوز أن يتكلم في المهد مولودا فجهله الأولياء والأعداء؟"[32].

بيّن الجاحظ بما لا يدع مجالا للشك أن السّند الذي أقام عليه النّصارى حجتهم لا يمكن له أن يستقيم لصاحب عقل ومنطق فبما أن اليهود لا تقرّ بالمعجزات التي أيد الله بها عيسى عليه السّلام كإطعام الجمع الغفير بالأكل القليل، والمشي على الماء وتصيير الماء جمدا وأنه لم يحي بشرا قط وإنما كل ما في الأمر أن رجلا يُدعى "لاعازر" قد أغمي عليه يوما وليلة وكانت أمه قليلة العقل فظنت أنه مات فأقامه ،بل يذهبون إلى أبعد من ذلك فهو صاحب حيل ومقتول مرجوم و اليهود لا تقر لعيسى عليه السّلام بآية واحدة من المعجزات التي أيده الله بهاوبناء على هذه المقدمات فالنتيجة تفضي إلى أن اليهود لا تقر لعيسى بالكلام في المهد

وقد اعتمد المجادل في هذه الفقرة بشكل أساسي على القياس باعتباره من" الحجج وهو أحد طرق الاستدلال غير المباشر و أقومها إنتاجا"[33]وهو إذ يلجأ إلى هذه الآلية لأنها "صيغة شكلية لإثبات حقائق سبق العلم بها ولكن حصلت الغفلة عن جوانب منها إذ يأتي القياس المنطقي منبها عليها أو ملزما الخصم التسليم بها إن هو أنكرها "[34]

أمّا في تفنيده دعوى النّصارى عدم معرفة المجوس والخزر والهند والترك بكلام عيسى في المهد قال: "ولو كانت المجوس تقرّ لعيسى بعلامة واحدة وبأدنى أعجوبة لكان لكم أن تنكروا علينا بهم وتستعينوا بإنكارهم، فأما وحال عيسى في جميع أمره عند المجوس كحال زرادش* في جميع أمره عند النصارى، فما اعتلالهم بهم، وتعلقهم في إنكارهم؟ "وأما قولكم: فكيف لم تعرف الهند والخزر والترك ذلك؟ فمتى أقرت الهند لموسى بأعجوبة واحدة فضلا عن عيسى؟ ومتى أقرت لنبي بآية وروت له سيرة حتى تستشهدوا الهند على كلام عيسى؟ ومتى كانت الترك والديلم والخزر والتتر والطيلسان مذكورة في شيء من هذا الجنس محتجا بها على هذا الضرب؟"[35].

وظّف المجادل الحجج المنطقية التي لا يمكن لعاقل رفضها، فأخرج القول على النّحو الآتــي:

- المقدمــة الأولـى: المجوسية لا تعتقد بالديانة المسيحية.
- المقدمــة الثانيــة: المجوسية تنكر نبوة عيسى عليه السّلام.

- النتيجـة: المجوسية لا تذكر كلام عيسى عليه السّلام في المهد فهي لا تعترف به نبيا والحال نفسه بالنسبة إلى النصرانية التي لا تعترف بزرادشت ولا بقداسة المجوسية

واعتـرض الجاحظ على مزاعم النّصارى في عدم ذكر الهنود لكلام عيسى على النحو الآتـي:

بما أن الهنود لا تقيم وزنا للرّسائل السّماوية(لا تؤمن بوجود رسائل سماوية).

- فانكتبها لم ترو سيرة نبي من الأنبياء، ولم تأت على معجزات موسى عليه السّلام(في إشارة منه إلى اليهود).
- وبالتالي فإنها لا تذكر عيسى ولا تذكر كلامه في المهد.

وللتذكير فإن القرآن يخبرنا أن مريم عليها السّلام لما أنجبت عيسى عليه السّلام بدون أب بل بكلمة من الله عز وجل ،أحست يضيق كبير لأنّ عليها أن تواجه عائلتها التي هي عائلة زكريا عليه السّلام في بيت لحم، بالإضافة إلى صورتها أمام المجتمع الذي عرفها بعفتها وقداستها، ثم إن الله تعالى أمرها أن لا تكلّم النّاس إلاّ بالإشارة للرضيع الذي في يدها. قال تعالى ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً﴾[36]﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً﴾[37] فتكلّم عيسى عليه السّلام مظهرا براءة أمه ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾[38]ثم قال:﴿وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً﴾[39].

فهذه المسألة من أهم المسائل التي ذكرت في القرآن الكريم ولا أثر لها في المصادر الدّينية أو التّاريخيّة الغير إسلامية، فبالرغم من أنها تُعدّ من أعظم المعجزات التي تبيّن صدق عيسى بن مريم عليه السّلام، وتَهُم النّصارى بالدّرجة الأولى، مع ذلك لا نجد لها أثرا إلاّ في القرآن الكريم.

ولعل الجاحظ في اعتماده على الشواهد الدينية والآليات العقلية كالقياس أراد أن لا يترك منفذا للاعتراض على صحة حججه،فمن خلال هذه الأدلة والبراهين بيّن قصور الأناجيل وعدم ذكرها لكامل الحقائق وأن القرآن من عند الله،وليس خاضع للأهواء البشريّة فلو كان كلام بشر لأنكر القرآن هذه الحادثة لأن الأناجيل نفسها لا تثبتها.

3.7- التّدليـل علـى القضيّـة الثانيـة:

وتتمثل فيما جاء من قول انقطاع سند النّصرانية وتناقض كتبها حيث يؤكّد النّصارى أن كلام عيسى عليه السّلام في المهد لم تذكره كتبهم ولا أشارت إليه، فيعرض الجاحظ ادعاء النّصارى في هذا الصّدد: "فان سألونا عن أنفسهم فقالوا :ما لنا لا نعرف ذلك ولم يبلغنا عنه أحد البتة"[40].

لم يكن اعتراض الجاحظ على ما جاء من ادعاءات النّصارى التي تنفي معرفتها بكلام عيسى في كتبها اعتراضا مجردا بل استند إلى حجج وأدلة و"تقتضي وظيفة المعترض في هذا المستوى أو المعارض إبطال الدعوى بإقامة الدّليل على نقيضها أو تستلزمه أو تقتضي إبطال مقدمة من مقدمات دليل هذه الدّعوى بعد أن يكون المدّعي قد أقام الدّليل عليها"[41].

والمعارضة بدت واضحة في حجاج الجاحظ ومن ذلك قوله "إنهم إنما قبلوا دينهم عن أربعة أنفس: اثنان من الحواريين بزعمهم، يوحنا ومتى، واثنان من المستجيبة، وهما مارقش (مارقس)، ولوقش (لوقا)، وهؤلاء الأربعة لا يؤمن عليهم

الغلط ولا النسيان ولا تعمد الكذب، ولا التواطؤ على الأمور، والاصطلاح على اقتسام الرّياسة وتسليم كلّ واحد منهم لصاحبه حصته التي شرطها له"[42].

فإن قالوا: "إنهم إن قالوا كانوا أفضل من أن يتعمدوا كذبا، وأحفظ من أن ينسوا شيئا وأعلى من أن يغلطوا في دين الله، أو يضيّعوا عهدا قلنا: إن اختلاف روايتهم في الإنجيل، وتضاد معاني كتبهم، واختلافهم في نفس المسيح مع اختلاف شرائعهم دليل على قولنا فيهم، وما ينكر من مثل لوقش(لوقا)أن يقول باطلا وليس من الحواريين فقد كان يهوديا قبل ذلك بأيام يسيرة"[43].

ركّز الجاحظ حجاجه على سند الأناجيل وبيّن أن أصحابها الأربعة ليسوا من حواريي المسيح وإن زعم النّصارى أن اثنين منهم من الحواريين، لا يؤمن عليهم غلط ولا نسيان ،ولا تواطؤ على كذب ،كما لم يغفل الجاحظ متن هذه الأناجيل التي تتعارض فيما بينها وتختلف رواياتها وتتناقض محتوياتها، وتتعاند معانيها بل تختلف في المسيح نفسه وهي أدلة قاطعة على افترائهم وكذبهم ،وقد وافق كثير من العلماء الرأي الذي ذهب إليه الجاحظ بأن كتّاب الأناجيل ليسوا من الحواريين، فقد تعرض ابن حزم في كتابه "الملل والأهواء والنحل "إلى هذه المسألة "إن هؤلاء الذين يسمونهم النصارى ويزعمون أنهم كانوا حواريين للمسيح عيسى عليه السّلام، كباطرة، ومتى الشرطي، ويوحنا ويعقوب ويهوذا لم يكونوا قط مؤمنين ،فكيف حواريين بل كانوا كذّابين كفارا···وأما الحواريين الذين أتى الله عليهم فأولئك أولياء الله حقا ···ولا ندري أسماءهم لأن الله تعالى لم يسمهم لنا، إلا أننا نبتّ ونؤمن ونقطع أن باطرة الكذاب ،ومتى الشرطي، ويحنا المستخف، ومارقش الفاسق ولوقا الفاجر، ما كانوا قط من الحواريين، لكن الطائفة التي قال الله تعالى فيها (وكفرت طائفة*)"[45]،وبهذا أبطل الجاحظ مزاعم النّصارى بحجج دامغة، تدل على قدرته الحجاجية في دحض دعاوي الخصوم "وما حسبته منتهى الاحتجاج جعله منطلقا له ·وما قدمته على أنّه طمأنينة لهم حوله إلى القلق يزيحهم ويقعد بهم"[46]

4.7-التّدليل علـى القضيـة الثالثـة:

فنّد الجاحظ دعوى النّصارى لبنوة عيسى عليه السّلام لله تعالى فيقول:"وسألتم إذا كان الله تعالى قد اتخذ عبدا من عباده خليلا فهل يجوز أ ن يتّخذ عبدا من عباده ولدا،يريد بذلك إظهار رحمته ومحبته إياه وحسن تربيته وتأديبه له، كما سمى عبدا من عباده خليلا وهو يريد تشريفه، وتعظيمه والدّلالة على خالص حاله عنده ؟"[47].

يتّضح أن أدلة الإثبات التي أطلقها أهل الكتاب تكتسي الصّبغة المنطقية ،لأن الشّروط التي تقتضيها المناظرة توفرت من شرط المضمون القضوي وشرط الصّدق بالإضافة إلى الشّرط الجوهري والذي سبقت الإشارة إليه، ولكن يبطل في هذه الحالة الشّرط الرّابع من شروط التّدليل ،وهي شروط تمهيدية، حيث يعتبر المدّعي المعترض صادقا في اعتراضه ،لأن اعتقاد النّصارى ببنوة عيسى تقوم على مزاعم كاذبة.

استفض الجاحظ في هذه المسألة وردّ قائلا:"...وأما نحن فإنا لا نجيز أن يكون لله ولد ،لا من جهة الولادة ،ولا من جهة التبني، ونرى أن تجويز ذلك جهل عظيم ،وإثم كبير، لأنه لو جاز أن يكون (الله)أبا ليعقوب، لجاز أن يكون جدا ليوسف!! ولو جاز أن يكون جدا وأبا وكان ذلك لا يوجب نسبا ···لجاز أيضا أن يكون(الله)عمّا، وخالا لأنّه

إن جاز أن نسميه من أجل الرّحمة والمحبة والتّأديب أبا، جاز أن يسميه آخر من جهة التعظيم والتّفضيل والتّسويد أخا ،ولجاز أن نجد له صاحبا وصديقا ...ولم يحمد الله من جَوَز عليه صفات البشر ومناسبة الخلق ،ومقاربة العباد "[48]وواصل مبينّا فقال :"والقول بأن الله يكون أبا وجدّا وعمّا وأخا ،للنصارى ألزم، وإن كان للآخرين لازما ،لأن النّصارى تزعم أن الله هو المسيح ابن مريم، وأن المسيح قال للحواريين :يا إخوتي، فلو كان للحواريين أولادا لجاز أن يكون الله عمهم...فهم لا يمنعون أن يكون الله تبارك وتعالى أبا وعما وجدا..."[49].

ذهب الجاحظ في مسار رده أن تجويز ذلك "جهل عظيم" من ناحية العقل و"إثم كبير "من ناحية الدّين فيتحقق مقصد الجاحظ الكلامي عبر رعاية أمر الدّين والعقيدة بأسلوب العقل ولذلك كان المسار الحجاجي تجميعا للحجج العقلية عبر التّوليد والاستدلال الذي يفضي إلى القياس(لو جاز أن يكون أبا ليعقوب، لجاز أن يكون جدا ليوسف)و اعتمد بينية الافتراض عنصرا من عناصر بناء البرهان كما اعتمد أسلوب التّعليل ليضفي على أقواله الصبغة المنطقية.

واصل المرسل دحض حجج الطرف الآخر وإقامة البيّنة والدّليل على ذلك قائلا: "...ووجه آخر تعرفون به صحة قولي وصواب مذهبي ،وذلك أن الله تبارك وتعالى لو علم أنه قد كان فيما أنزل من كتبه على بني إسرائيل أن أباكم كان بكري ،وابني، وأنكم أبناء بكري ،لما كان يغضب عليهم إذا قالوا :"نحن أبناء الله" فكيف لا يكون ابن الله ابنه وهذا من تمام الإكرام وكمال المحبة ولا سيما إن كان قال في التوراة بنو إسرائيل أبناء بكري وأنت تعلم أن العرب حين زعمت أن الملائكة * بنات الله كيف استعظم الله ذلك وأكبره وغضب على أهله"[50].

ليكتف المرسل بالحجج العقليّة بل دعّمها بالشّواهد القرآنيّة ليظهر صحة ما ذهب إليه، وليبيّن التّناقض في قولهم وبالتالي يدحض ادعائهم ببنوة عيسى لله تعالى، وهو في ذلك يقيم عليهم الحجّة لأنّه أظهر الخلل في أقوالهم ،بادعائهم على الله الكذب وإسباغ صفات البشر على المولى عزّ وجلّ، والقرآن الكريم ينفي "الوالديّة والولديّة على الحقيقة وعلى المجاز كليهما"[51]﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[52] ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إله إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[53]وقوله عزّ وجلّ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾[54]

حاول المتكلّم تقوية اعتراضه بعدد من الأدلة ليدحض بها ما جاء به المتكلمون من جواز قول النّصارى المسيح ابن الله على سبيل المرحمة والعطف وليس الولادة والنسب، قياسا على اتخاذ الله إبراهيم خليلا وهو ما بيّنه قوله :"إن إبراهيم صلوات الله عليه ،وإن كان خليلا فلم يكن بخُلةٍ كانت بينه وبين الله ،لأنّ الخُلة والإخاء والخلطة، وأشباه ذلك ،منفيّة عن الله عزّ ذكره ،فيما بينه وبين عباده، على أن الإخاء والصداقة داخلتان في الخلة...ويجوز أن يكون إبراهيم عليه السّلام خليلا في الله بالخَلة التي أدخلها الله على نفسه وبين أن يكون خليلا بخُلة بينه وبين ربه فرق ظاهر ذلك أن إبراهيم عليه السلام اختل في الله اختلالا لم يختلله أحد قبله لهذه الشّدائد مختلا في الله"[55].

ساعدت كفاءة المتكلّم اللغوية على فهم الآيات القرآنية وتأويلها بما يتوافق والمنهج العقلي الذي يؤمن به الجاحظ أشد الإيمان، فـ"للعرب أمثال واشتقاقات وأبنية، وموضع كلام يدل عندهم على معانيهم وإرادتهم ولتلك الألفاظ مواضع أخرُ ولها عندئذ دلالات أخر، فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسّنة"[56] وحتى يقيم الحجة

الظاهرة ويغلق المنافذ المحتملة لم يكتف بالحجج العقلية الشواهد القرآنية بل أدرج الحجج اللغوية، ليعارض المفهوم الذي ذهب إليه بعض المتكلمون في معنى "خُلة" واستند في هذا الشّأن إلى لغة العرب، ليبيّن أن الخُلة والتي تعني الخلطة والإخاء منفية بين الله وعباده، واعتمد على إمكانات اللّغة الاشّتقاقيّة "فلا شيء نبتدئ منه غير اللّغة ولا شيء ننتهي إليه غير اللّغة وما من شيء موضوعي أو ذاتي إلا هو كامن في اللّغة وينبغي أن يلتمس في اللّغة"[57]،فقد اتّخذ من الجناس حجة(الخُلة الخَلة)،تجتمع اللّفظتان في مادة الاشتقاق وتختلفان في المعنى وهو بذلك يدعو إلى إقحام العقل في تفسير ما غمضت دلالته في القرآن الكريم على اعتبار أن الدّليل العقلي عند المعتزلة مُقدم على القران والسّنة "لأنه يميّز بين الحسن والقبح ولأنّ به يُعرف الكتاب وكذلك السّنة والإجماع"[58].

كما استدعى المناظر الشّاهد الشعري لاعتداد العرب بالمدونة الشّعرية وتسليمهم بما جاء فيها فأورد بيتا لزهير بن أبي سلمـى:

وإنْ أَتَاهُ خَلِيلٌ يَوْمَ مَسْبَغَةٍ *** يَقُولُ لاَ عَاجِزَ مَالِي وَ لاَ حَرَم

بعدما دحض الجاحظ ادعاءات النصارى بالأدلة المتنوعة والبراهين الدامغة ،وضع نفسه موضع السائل ليبيّن للمعترضين مدى جهلهم ومحدودية تفكيرهم.

فقل: "ونسألهم إن شاء الله ونرد عنهم ونستقصي لهم في جواباتهم كما سألنا لهم أنفسنا واستقصينا لهم مسائلهم فيقال لهم: هل يخلوان يكون المسيح إنسانا بلا إله؟ أو إلها بلا إنسان ؟أو إلها وإنسانا؟ فان زعموا أنه إلها بلا إنسان ،قلنا لهم: فإننا نعرف من الأناجيل بأنه كان صغيرا ثم شبّ والتحى، وكان يأكل ويشرب وينجو ويبول ،وقتل بزعمكم. وصلب وولدته مريم وأرضعته أم غيره الذي كان يأكل ويشرب؟ فأي شيء يا ترى هو الإنسان إن لم يكن ما ذكرناه؟! "[59].

لجأ المناظر إلى حجة البرهان بفصل الحالات التي تتقاطع إيجابا مع حجة استقراء الواقع، فالمسيح إما أن يكون إنسانا خالصا أو إلها خالصا أو أن يكون جامعا لكليهما، ولأن "للعقل منطقه الخاص يجعل الإنسان محاصرا بمجموعة من الضرورات والضوابط الموضوعية التي توجه الإنسان وتضبط سلوكه اتجاه الآخرين"[60].

كما استدعي حجة اللاتناسق من "باب تأكيد الواحد ونفي الآخر"[62] وهكذا فرض على المتلقي الاختيار الذي سطره المخاطب مسبقا من خلال قوله: "وكيف يكون إلها بلا إنسان وهو الموصوف بجميع صفات الإنسان؟!"[63] والجدير بالذكر أن الاستفهام في المناظرة ليس غرضه طلب معرفة أمر مجهول ولكن" يحملها المتحاوران أهدافا اقناعية، فالمبادلات الكلامية التي تجمع أشخاصا متناقضين نادرا ما تكون الأسئلة فيها محايدة ومحض إخبارية لأن التّقاطب هو الذي يوجّه أقوال هؤلاء الأشخاص"[64]ومن هنا كانت أسئلة الجاحظ تروم إزعاج الخصم وإظهار عجزه كما تحث المستمع على النّظر والتّمحيص وإعمال العقل قبل الاصطفاف إلى جانب معيّن وخاصة في القضايا التي تحمل طابعا عقائديّا.

لم تنضب أسئلة الجاحظ الموجّه إلى خصمه، لأنّ بالسّؤال يتطوّر السّجال وتزداد الأقوال وبالتّالي يبرز التفاعل وتظهر البدائل التي تخدم المعرفة، ولهذا الأمر تضاعفت أسئلة الجاحظ فقال: "وإن زعموا بأنه لم ينقلب عن الإنسانية

ولم يتحوّل عن جوهر البشريّة، ولكن لما كان اللاهوت فيه صار خالقا سمي إلها[...]قلنا: خبرونا عن اللاهوت أكان فيه وفي غيره أم كان فيه دون غيره؟"[65].

يظهر المنهج الجدلي والذي هو منهج علم الكلام، في تفنيد الجاحظ أقوال خصومه وذلك بالبحث عن الأسباب التي خولت للنصارى التّقول على الله، فبيّن أنه إذا أقررنا بالحالة الأولى، فان المسيح ليس بأولى من غيره في أن يسمى إلها، وأما إذا أقررنا بالحالة الثانية، فإن اللاهوت صار جسما وبالتالي لا معنى للاهوت هنا.

أشار الجاحظ إلى الاختلاف والتباين بين المتكلمين (أصحاب اللاهوت) النصارى وفلاسفتهم، إلا أنه يعتبر هذه التّصورات بمجملها إحدى صيغ التشبيه والتجسيم، الذي يمكن العثور عليه في مختلف الأديان، كما نراه عند اليهود (الذين يعتبرهم الجاحظ مشبهة ومجبرة) وعند الرافضة المشبهة والحشوية في الفرق الإسلامية"[66].

أراد الجاحظ أن يفحم خصمه فأشار إلى مسألة خلق آدم عليه السّلام، وأحقيته بالبنوة لله تعالى إذا كان المسوغ هي الولادة بدون ذكر، يقول في هذا الشّأن: "إن كان المسيح إنما صار بن الله لأن الله خلقه من غير ذكر ،فآدم وحواء إذا كانا من غير ذكر وأنثى أحق بذلك، إن كانت العلة في اتخاذه ولدا أنه خلقه من غير ذكر"[67]

أبطل الجاحظ حجّة النّصارى ولم يترك لهم أدنى اعتراض ،وذلك بإخضاع مقولتهم للاستدلال المنطقي "فالجنس البشري يشترك فطريا في استعمال آليات منطقية في إنشاء الكلام وتأويله، انطلاقا من تجارب الأفراد وتفاعلهم مع محيطهم ...وكلما أفلح الفرد في اختيار ما يناسب من هذه الآليات كان لخطابه وقع على مخاطبيه استمالة أو إقناعا...إذ تعمل جميعها على تسريع عملية تعديل موقف أو تغيير سلوك أو الدفع إلى عمل أو تغيير نظرة تجاه موضوع"[68] والعقل والمنطق يحكمان لصالح الأطروحة التي عرضها المخاطب فمادامت حجة النّصارى في ادعاء البنوة تكمن في ولادة عيسى عليه السّلام من غير ذكر، فآدم وحواء ولدا من غير ذكر وأنثى، وعليه فحجّة النّصارى ومن اتبعهم مردودة عليهم.

ليس غريبا أن يعتد الجاحظ بالقياس مادام معتقدا بالعقل، حيث بيّن أن: "الذي لم يأخذ فينا بحكم القرآن، ولا بأدب الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يفزع إلى ما في الفطن الصحيحة، والى ما توجبه المقاييس المطردة ،والأمثال المضروبة ،والأشعار السائرة أولى بالإساءة وأحق بالملائمة "[69]والمخطط الآتي يبيّن القياس الذي أقامه الجاحظ ليدلل على صحة ما ذهب إليه.

- المقدمة الكبرى: ← الذي يولد من غير ذكر هو ابن الله
- المقدمة الصغرى الأولى: ← عيسى عليه السلّام ولد من غير ذكر
- النّتيجة الأولى: ← عيسى عليه السّلام ابن الله
- المقدمة الصّغرى الثانية: ← آدم عليه السّلام ولد من غير ذكر وأنثى
- النتيجة الثانية: ← آدم عليه السّلام ابن الله أيضا

إن تحقيق الإقناع قد يكون "الوصول إليه عبر عملية حجاجية مباشرة"[70] أو عبر عدّة عمليات متى استدعى الإقناع والتأثير ذلك، ونظرا لطبيعة الموضوع استند الجاحظ إلى سلسلة من الاستدلالات التي ساعدت على إضفاء

الموضوعية والعقلانية على الأطروحة المعروضة، وظهرت هذه الاستدلالات في قوله: "والأعجوبة في آدم عليه السّلام أبدع وتربيته أكرم، ومنقلبه أعلى وأشرف ،إذا كانت السّماء داره والجنة منزله والملائكة خدامه ،بل هو المقدم بالسجود والسجود أشد الخضوع، وان كان بحسن التّعليم والتّثقيف فمن كان الله تعالى يخاطبه ويتولى مناجاته دون أن يرسل إليه ملائكته ويبعث إليه رسله ،أقرب منزلة وأشرف مرتبة وأحق بشرط التأديب ،وفضيلة التّعليم···وكان الله يكلم آدم كما كان يكلّم ملائكته ،ثم علّمه الأسماء كلها، ولم يكن ليعلمه الأسماء كلّها إلاّ بالمعاني كلّها، فإذا ذلك كذلك ،فقد علّمه جميع مصالحه ومصالح ولده ،وتلك نهاية طباع الآدميين، ومبلغ قوى المخلوقين"[71]

انتقى الجاحظ حججه من القرآن الكريم لأنه يراها "حجة على الملحد، وتبيان للموحد قائم بالحلال المنزل ،والحرام المفصل، وفاصل بين الحق والباطل، وحاكم يرجع إليه العالم والجاهل، وإمام تقام به الفروض والنوافل ،وسراج لا يخبو ضياؤه، ومصباح لا يخزن ذكاؤه [····] ومرشد يدل على طريق الجنة والنّار، ويجير يوم التّحاكم"[72]

فإذا كانت بنوة الله لعيسى عليه السّلام لأنّه ولد من غير ذكر فقد بيّن أحقية آدم لبنوة الله عزّ و جلّ لأنه وُلد من غير ذكر ومن غير أنثى، أما إذا كان ذلك لمكان التّربيّة فآدم عليه السّلام أولاه الله عناية متميّزة.

فقد تقدم آدم عليه السلام على عيسى عليه السّلام وعلى كافة البشر وذلك في كيفية خلقه، لأن الله سبحانه تولى خلقه بيده ونفخ فيه من روحه مصداقا لقوله تعالى:﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[73]

ثم أصدر أمره للملائكة ليسجدوا لآدم ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[74]على أن سجود الملائكة لآدم هو إطاعة لأمر الله، وليست عبادة لآدم، فالله سبحانه هو الذي أمر ملائكته بالسّجود ولم يأمرهم بذلك آدم ، ثم خصصّه وشرفه بالعلم الكثير وجعله معلماً للملائكة وهم مستفيدون منه ،بل صارت الملائكة عاجزين عن بلوغ درجته في العلم وذلك لقوله عزّ جلّ:﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هؤلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[75]وتوالت نعم الله على آدم فأسكنه الجنة رفقة حواء، وأرغد فيها عيشهما وهذا ما تبيّنه الآية الكريمة﴿ وقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[76].

بيّن الجاحظ النّعم التي أسبغها الله عزّ شأنه على آدم عليه السّلام، ليدرك المتلقي مدى الحظوة التي نالها آدم عليه السلام وليقنع الخصم أن العناية الإلهية التي أحاطت آدم عليه السّلام، فاقت بكثير الحظوة التي نالها عيسى عليه السّلام، رغم ذلك لم يدع أحد أن آدم ابن الله. هكذا حاج الجاحظ خصومه وأبطل مزاعمهم.

ويحسن التّذكير أن هذه المناظرة تعتبر من أقدم النّصوص التي وصلتنا، مصوّرة حركة الجدل الدّيني في البيئة الإسّلاميّة ضد اليهود والنّصارى، كما أن هذه المناظرة تكشف عن جانب مهم من عبقرية الجاحظ، فهو ليس أديبا ناقدا فحسب، لكنه إلى جانب ذلك عالم بالأديان، مطلع على كتبها، ملم بدقائق عقائدها، وتفاصيل مبادئها، كما أنها تبين الجهد العظيم الذي بذله المتكلمون المتقدمون في مواجهة التحديات الخارجية الخطيرة المتمثلة في مواقف اليهود والنصارى.

8-الخاتمة

بناء على ما سبق يتّضح أن المناظرات قديما كانت ذات طبيعة سجالية تبكيتية انصرفت فيها الطاقة الإقناعية إلى حجة اللوغوس، معتمدة حجة العقل وبرهانه وهذا يتناسب مع السّياق الحجاجي الجدلي الذي يقتضي تقديم الحجج لإثبات صدق الدعوى ودحض الدعوى المناقضة، وفي هذه المناظرة تظهر الجسارة العقلية للجاحظ حيث زخرت بالأفكار الجدلية والآراء الاستدلالية التي اقتحمت موضوع الإلهيات والمنطق والدين، كما تشي المناظرة بنزعتها الكلامية التي وصمت أسلوب الجاحظ.

آمن الجاحظ بقدرات العقل واعتبره صمام الأمان من كلّ زلل أو انحراف معرفيّ وفي ذلك يقول: "احذر أن تكون ممن ينظر إلى حكمة الله وهو لا يبصرها وممن يبصرها بفتح العين واستماع الأذن، ولكن بالتوقف من القلب والتثبت من العقل وبتحفيظه وتمكينه من اليقين والحجة الظاهرة"[77] والعقل يقود حتما إلى معرفة الله.

9-الهوامش

-انظر: أبو الفداء، إسماعيل بن عمر بن درع القرشي، البصروي، الدمشقي، تاريخ ابن كثير،البداية والنهاية، ضبطت وصححت وذيلت بشروح هيئة قامت بها هيئة بإشراف الناشر، مكتبة المعارف،بيروت،ط6، 1406 هـ-1980، ج10،ص215.

2- ابن منظور، لسان العرب، مادة(نظر).

3- عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات ضفاف ,بيروت، لبنان، ط1، 1434 هـ ،2013 م ،ص129.

4- طاش كبرى زاده، شرح آداب البحث ,مجلة المناظرة ,السنة الثانية,العدد3,يونيو1990,ص17.

5- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تح: عبد الله محمد الدرويش، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط1، 2013 م.

6- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، ط2، 2000، ص46.

7- انظر: طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام،ص46-47

8- انظر: أبو المعالي الجويني، الكافية في الجدل، وضع هوامشه خليل المنصور ،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ-1999م، ص 17-18.

9- المرجع نفسه،ص19.

10- أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي(ت474هـ)، المنهاج في ترتيب الحجاج ،تحقيق :عبد المجيد التركي ،دار الغرب الإسلامي تونس،ط1987،2م،ص8

11- حمو النقاري، منطق الكلام، من المنطق الجدلي الفلسفي إلى المنطق الحجاجي الأصولي منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون،ط1، 1431هـ، 2010م، ص 366.

13انظر :طه عبد الرحمان، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ،ص 157.

14 - المرجع نفسه، ص 47.

15 - حمو النقاري، منطق الكلام، ص 373.

* - سورة العنكبوت، الآية46.

** - سورة المجادلة،الآية1.

16 - طه عبد الرحمن في, أصول الحوار وتجديد علم الكلام,ص74.

17-المرجع نفسه،ص76-77.

18- محمد نور الدين أفالية، الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة، إفريقيا الشرق،المغرب،بيروت،لبنان،ط2، 1998،ص2.
19- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام،ص74-75
20- علي أبو ملحم، المناحي الفلسفية عند الجاحظ ، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر،1397هـ- 1977م.ص 456-457.
21- جول تريكو، المنطق الصوري، تر: محمود يعقوبي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1992، ص36.
22- ريمون بودون، فرانسوا بوريكو، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، تر سليم حداد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1986، ص238.
23-الجاحظ، رسالة صناعة الكلام ،حققها وعلق عليها :علي أبو ملحم،(الرسائل الكلامية) ، ص56.
24- الجاحظ،رسالة الفتيا، ، حققها وعلق عليها علي بوملحم،(الرسائل الأدبية)، ص150.
25- الجاحظ،رسالة العثمانية، حققها وعلّق عليها :علي بوملحم، (الرسائل السياسية)، ص 328.
26- الجاحظ ،رسالة استحقاق الإمامة، حققها وعلق عليها :علي أبو ملحم ،ص192.
27-طه عبد الرحمن،في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص 38-39.
-* ولفظ إقامة يستعمل في الممارسة الفلسفية، مقابلا للفظ العطاء، إذ الثاني يفيد معنى ما يحضر في عقل الإنسان من غير أن يستحضره فيه بنفسه لا بطريق ولا بأخر وهذا يعني أن المعطى يحضر في العقل ابتداء أي دونما واسطة ،والواسطة هي جملة الاستحضارات العقلية باعتبارها تحدث تعديلات أو تقويمات فيما تخل عليه(طه عبد الرحمن :اللسان والميزان أو التكوثرالعقلي،ص33.
28- المرجع نفسه ،ص 131.
29- الجاحظ،رسالة الرد على النصارى،(الرسائل الكلامية)،ص267.
30- طه عبد الرحمن ،في أصول الحوار وتجديد علم الكلام،ص76.
-*نيرنجات،أي حيل سيميائية تحول المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة.
-** لسنا سكينا ،أي حمارا وحشيا أو كالحمار الوحشي في خفة حركة جسمه.
30- رسالة الرد على النصارى ،ص 267-268.
31- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، دار القلم، دمشق، ط4، 1993،ص227.
32 - المرجع نفسه،ص227.
-*زرادشت:هومؤسس الديانة الزردشتية، وقد عاش في مناطق أذربيجان ، وظلت تعاليمه وديانته هي المنتشرة في مناطق واسعة حتى ظهور الإسلام ،انظر: ابن النديم ،الفهرست ،ص 19.
33- رسالة الرد على النصارى ،ص 267-268.
34- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، دار القلم، دمشق، ط4، 1993،ص227.
35- المرجع نفسه،ص227.
-*زرادشت:هومؤسس الديانة الزردشتية، وقد عاش في مناطق أذربيجان ، وظلت تعاليمه وديانته هي المنتشرة في مناطق واسعة حتى ظهور الإسلام ،انظر: ابن النديم ،الفهرست ،ص 19.
- رسالة الرد على النصارى، ص269.
36- سورة مريم،الآية27.

37- سورة مريم، الآية29.

38-سورة مريم،الآية30.

39-سورة مريم،الآية32.

40- رسالة الرد على النصارى،ص269.

41- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام،ص82.

42- رسالة الردّ على النّصارى،ص270.

43-المصدر نفسه ،ص270.

44-المصدر نفسه، ص 270.

45- المصدر نفسه،ص271.

46-المصدر نفسه،ص273.

*-وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمَّايَشْتَهُونَ ،سورة النحل ،الآية 57

47- رسالة الرد على النصارى، ص272.

48- محمد عبد الله الشرقاوي، المختار في الرد على النصارى، دار الجيل، دمشق، ط1، 1991، ص30.

49 - سورة مريم،الآية35.

50- سورة المؤمنون، الآية91.

51- سورة الإخلاص، الآية 3.

52- رسالة الرد على النصارى، ص 276.

53- الجاحظ، الحيوان، ج1، ص 154.153.

*-وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمَّايَشْتَهُونَ ،سورة النحل ،الآية 57

54- رسالة الرد على النصارى، ص 276.

55- الجاحظ، الحيوان، ج1، ص 154.153

56- عادل مصطفى، فهم الفهم" مدخل إلى الهرمنيوطيقا" ،نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادمير ،رؤية للنشر والتوزيع، ط1، 2007، مصر،القاهرة،ص297.

57- القاضي عبد الجبار ،فضل الاعتزال وطبقات الاعتزال ،تحقيق فؤاد سيد، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس، ط2، 1986، ص 139.

58- القاضي عبد الجبار ،فضل الاعتزال وطبقات الاعتزال ،تحقيق فؤاد سيد ،ص283.

59 - عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير،ص179.

60- رسالة الرد على النصارى،ص284.

61- محمد عبد الله الشرقاوي، المختار في الرد على النصارى، ص36.

62- رسالة الرد على النصارى،ص278.

63- عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير،ص88.

64- الجاحظ،الحيوان، ج1،ص160.

65- عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير،ص128.

66- رسالة الرد على النصارى،ص279.

67- محمد كرد علي، أمراء البيان،ط2،مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ج2، 1433هـ-2012م،ص 348.

68- سورة ص، الآيتان 72.71.

69- سورة البقرة، الآية 34.

70- سورة البقرة، الآية 31.

71- سورة البقرة ،الآية 35.

72- الجاحظ، الحيوان،ج4،ص211.

10- المصادر والمراجع:

أولا :القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

ثانيا :المصادر والمراجع

1-إسماعيل بن عمر بن درع القرشي، البصروي، الدمشقي، تاريخ ابن كثير،البداية والنهاية، ضبطت وصححت وذيلت بشروح هيئة قامت بها هيئة بإشراف الناشر، مكتبة المعارف،بيروت،ط6، 1406 هـ-1980، ج10.

2-جول تريكو، المنطق الصوري، تر: محمود يعقوبي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1992

3-حمو النقاري، منطق الكلام، من المنطق الجدلي الفلسفي إلى المنطق الحجاجي الأصولي منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون،ط1، 1431هـ، 2010م.

4- ريمون بودون، فرانسوا بوريكو، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، تر سليم حداد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1986،

5-عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة، دار القلم، دمشق، ط4، 1993م.

6-عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، تح: عبد الله محمد الدرويش، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط1، 2013 م.

7- عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، إفريقيا الشرق،المغرب، ط2، 2012 م.

8-علي أبو ملحم، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر،1397هـ- 1977م.

9-طاش كبرى زاده، شرح آداب البحث ,مجلة المناظرة ,السنة الثانية,العدد3,يونيو1990م.

10-طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، ط2، 2000م.

11-طه عبد الرحمن،اللسان والميزان أو التكوثر العقلي،المركز الثقافي العربي ،الدار البيضاء،المغرب ،ط 2، 2006 م.

12-عادل مصطفى، فهم الفهم" مدخل إلى الهرمنيوطيقا" ،نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادمير ،رؤية للنشر والتوزيع، ط1، مصر، القاهرة 2007م.

13-أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255هـ(:كتاب الحيوان،تحقيق:عبد السلام محمد هارون، المطبعة الحميدية،القاهرة، ط2،1384هـ-1965 ، ج1، ج2.

14-أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255هـ(:الرسائل الكلامية،قدّم لها وبوّبها :علي أبو ملحم، دار مكتبة الهلال،بيروت لبنان، ط3،1995م.

15-أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255هـ(:البيان والتبيين،تح: عبد السلام محمد هارون،مكتبة الخانجي،القاهرة، مصر،ط7، 1418 هـ-1998،ج 1،ج2.

16-أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد ابن النديم ،الفهرست،(ت 438هـ(،تح: إبراهيم رمضان ،دار المعرفة،بيروت لبنان، ط2، 1417هـ ، 1997 م.

17-القاضي عبد الجبار ،فضل الاعتزال وطبقات الاعتزال ،تحقيق فؤاد سيد، الدار التونسية للنشر والتوزيع، تونس، ط2، 1986

18-عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات ضفاف ,بيروت، لبنان، ط1، 1434 هـ ،2013 م

19-أبو المعالي الجويني، الكافية في الجدل، وضع هوامشه خليل المنصور ،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ-1999م،

20-محمد عبد الله الشرقاوي، المختار في الرد على النصارى، دار الجيل، دمشق، ط1، 1991

21-محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري جمال الدين أبو الفضل (ت711هـ)،لسان العرب، إعداد وتصنيف :يوسف خياط،تقديم:الشيخ عبد الله العلايلي،دار لسان العرب،بيروت،دت.

22-محمد كرد علي، أمراء البيان،ط2،مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ج2، 1433هـ-2012م،

23-محمد نور الدين أفالية، الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة، إفريقيا الشرق،المغرب،بيروت،لبنان،ط2، 1998

24-أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي(ت474هـ)، المنهاج في ترتيب الحجاج ،تحقيق :عبد المجيد التركي ،دار الغرب الإسلامي تونس،طم1987